شـــــيخ فى مرقص !

للأستاذ على الطنطاوى

— ١ —

كنت أصلى أمس فى مسجد العباس ، فلما قضيت الصلاة وتلفتُّ للسلام لمحت (فلانا) فكذبت بصرى وعدت إليه أتثبّته فاذا هو بلحمه ودمه ، وإذا هو يصلى صلاة خاشع لله متبتل أواب ، وكان آخر عهدى به أنه ركب فى طريق الغواية رأسه ، وأقدم إقدام الفرس الشّموس ، فخبّ فى الضلال ووضع ، وأغار وأنجد ، ثم انتهى به الخبط إلى الهاوية ، فوقع (على أم رأسه) فى اشتهاء راقصة مشهورة ، وحسب هذا الاشتهاء حباً كالذى قرأ وصفه فى الروايات فصنع مثلما يصنع المحبّون : نسى عقله ودينه ، وجاد بقلبه وماله ، وعرفت منه الفاجرة هذه الخافقة ، فاستنزفت دم (جيبه) وماء قلبه ، ثم لم توصله إلى إربه ولم تمتعه بحبّه ... وكان له ضمير يناديه فأعرض عن نداء ضميره ، وكان له إخوان ينصحونه فسدّ أذنيه عن نصح إخوانه ، فلما يئسوا منه ومن صلاحه انصرفوا عنه وتركوه لنفسه وللراقصة ولإبليس ، ثم للمرض والفقر وجهنم !

... فلما رأيته فى المسجد عجبت وانتظرته حتى فرغ ، فأقبلت فسلمت عليه وسألته ، فقال : إن حديثى عجب ، وإنى لا أحب أن أتحدث به فى بيت الله فتعال معى إلى بيتى تسمع حديثى ...

* * *

وحدثنى فقال :

إن الفضل علىّ فيما رأيت من توبتى لله ثم للشيخ صلاح الدين أحسن الله إليه ، فلقد هدانى الله به وهدى أقواماً بعد إذ كانوا ضالّين . ولقد عرفت رجالا شجعاناً أولى عزم وإقدام ، وسمعت أخبار العلماء الذين واجهوا الملوك بما يكرهون ، وأحاديث أهل الجراءة والصدع بالحق ؛ ولا والله ما سمعت ولا عرفت بأجرأ من هذا الشيخ ، ولا أثبت منه جَناناً ...

قلت : إذ صنع ماذا؟

قال : إذ وعظ فى المرقص ! أما سمعت الحكاية ؟ لقد استفاض خبرها وتناقلته الصحف ، وكان حديث السّوامر أياماً طوالاً ... وذلك أنه نظر فرأى طلاب العلم لا يزالون ينقصون ، ورأى الناس ينصرفون عن المساجد فلا يحضرها إلا الكهول والعجّز ، وما يحتاج هؤلاء الوعظ إنما يحتاجه الشباب . وسأل أين الشباب ؟ فأجابوه عن أن يخبروه ، ثم قالوا : إن الشباب فى السينمات والمراقص ونوادى القمار ... قال : وما السينمات والمراقص ؟ لم يكن الشيخ يدرى ما هى ، ولم يكن يعرف من الدنيا إلا مسجده وداره ، ولا يسمع إلا حديث العلم ، وقال المصنف ، وذكر الشارح وعقّب عليه المحشّى ...

قالوا : إن المراقص أبهاء واسعة تمتلىء بالناس وفى صدرها منصات عالية لها سُتُر ترتفع وتنسدل ، يقوم عليها نسوة عاريات إلا من خِرَق لا تكاد تستر من أجسادهن شيئاً ، يقفزن ويلعبن ويحركن أيديهن وأرجلهن ...

قال : حسبكم ، حسبكم ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! نساء يلعبن أمام أعين الرجال الأجانب ؟ ! ما ظننت أن مثل هذا يكون فى دار الإسلام ، قوموا بنا إلى المرقص !

قالوا : إلى المرقص يا مولانا ؟ !

قال : نعم . نتّقى مثل لعنة داود وعيسى بن مريم ، ونغيّر هذا المنكر بألسنتنا إذ قد قعدت بالحكام رقّة دينهم عن أن يغيّروه بأيديهم .

قالوا : يامولانا ، إنهم يسخرون منا ويؤذوننا ، ولا يصغون لمقالنا .

قال : ما نحن بأفضل من الأنبياء ، وما نفوسنا بأكرم علينا من نفوسهم . ولقد سُخر منهم وأوذوا فى سبيل الله فما ضعفوا ولا استكانوا ، وإنما علينا البلاغ والهدى هدى الله .

قالوا : إن المدارس قد ابتدعوا فيها هذه الأيام بدعة جديدة من أخزى البدع وأرضاها لإبليس ، وهى أن تبرز البنات سافرات حاسرات فيلعبن أمام الرجال ، فلنبدأ بالمدارس قبل المراقص فانهم سيقتلون فيها الأخلاق ، باسم الرياضة والصحة والفنّ !

قال الشيخ : بل نبدأ بالمراقص إن شاء الله .

فلما رأوا منه الجدّ والاصرار ، قالوا : أمهلنا يا مولانا حتى نعدّ لك مكاناً فيه تعظ منه الناس .

وذهبوا إلى (مرقص أبي نواس) فسألوا صاحبه أن يؤجرهم المسرح ربع ساعة ما بين الفصلين ، ليجيء الشيخ فيعظ فيه الناس . فنظر الرجل فيهم لعلّه يبصر تحت معاطفهم المسروقة ثياب المستشفى التي فرّوا بها من (القصير[1]) وابتعد عنهم خشية أن تعاود أحدهم جنّته فيثب على عنقه فيخنقه أو يشج رأسه بحديدة يخفيها في كمّه ، ودعا أعواناً له لينقذوه من هؤلاء المجانين الذين يريدون أن يجيئوا بشيخهم ليعظ الناس على مسرح التياترو ... ولكن القوم قطموا عليه ما هو فيه وجرّوه من رسَنه[2] فانقاد ذليلا طيّعاً ، حتى عرضوا عليه في هـــذا الـ (الربع من الساعة) نصف ما يكسبه في الليلة كلها ، وقبل منهم وشيّعهم إلى الباب ، ولكنه لم يمس أن يقبض المبلغ منهم قبل أن ينفلت دونهم .

وفرح الرجل بهذا الإعلان الجديد عن مرقصه ، وأمّل أن يغلب به (مرقص مطيع بن أياس) الذي يقوم إلى جنبه يزاحمه ويقاسمه قصّاده ، وانتظر أن (يمثل) الشيخ (مهزلة) تكون (رواية الموسم) ، وذهب فطبع (إعلانات) ضخمة عن (المفاجأة الدهشة) التي ستروع الناس ، وجاء الناس يرون هذه المفاجأة وما يقع في وهم أبعدهم خيالاً ، إلا إنها راقصة جديدة ، أو إنها رقصة مبتكرة ، وماذا يكون في المرقص إلا الرقص ؟ !

وكنت تلك الليلة هناك ، ورقصت (فلانة) رقصة عبقرية مُبْـدَعةً عرضت فيها من فنونها وفتونها عجباً ما رأى الراؤون مثله ، وَجَنَّنَت الحاضرين حتى مايدرون من الفتنة ما يصنعون ، وحتى دَميت الأكفّ من التصفيح والتصفيق ، وبحّت الحناجر من الهتاف والصراخ ، وأرخى الستار على الراقصة وهي أحبّ إلى كل واحد منهم من زوجه وولده ، وما واحد منهم إلا ويبذل في ساعة منها ماله وشرفه ودينه ، وجعلوا ينادون باسمها ، يريدون أن يمتعوا أبصارهم برؤيتها كرّة أخرى ، فلما تمادى غيابها أقبلوا يرددون اسمها في إلحاح وانصال ، ويقرعون الأرض بأقدامهم فعل الصبيان ، وروّاد اللاهي . لهم عقول كعقول الصبيان ،

فارتفع الستار ونظروا ...

نظروا فاذا هم يرون مكان ذلك الجسم الحبيب المشتهى ، وذلك العُرْسى المنرى الفتان ، شيخاً جالساً بهامته ولحيته وجبته ، شيخاً حقيقياً لا تمثالاً مكسوّاً ثياب المشايخ ، ولا شيخاً مزوّراً من شيوخ (التمثيل) !

وبدأ الشيخ درسه بحمد الله والصلاة على رسول الله ؛ وربطت الدهشة ألسنة الحاضرين لحظة ، فكانت سكتة شاملة ، ثم صحوا لفجأة ، فكان الانفجار ...

* * *

إن كل محاولة لوصف هذا الانفجار إنما هي إفساد وتشويه لصورته في نفس السامع ، وإنك تعرف هؤلاء الناس وإن فيهم كل ماجن خبيث ، وجبار فاجر ، وفيهم السكران وفيهم الحشاش ، وقد جاءهم هذا الشيخ في الساعة التي اكتملت فيها نشوتهم ، وطَـمَّتْ (براح الراقصة) سكرتهم ، ليتلو عليهم حديث التقى والصلاح من فوق منصة المرقص ، وليقول لهم دعوا هذه المرأة فانها رجس ، وغضوا عنها أبصاركم فانها عورة ، وانصرفوا عن هذه البقعة فانها دار دنس وإثم ، وقد طلع عليهم وهم يرتقبون طلعة الغادة العارية المِـئْناج ... فتصور ما ذا يكون منهم !

لقد صفّروا له وسخروا ، ورموه بكل قبيح في القول ، وسألوه أن يتجرد فيرقص لهم ويريهم غُنجه ، وعرضوا عليه كؤوس الخمر مترعة ، وهو ماضٍ في كلامه كأنما هؤلاء ذباب يحوم حوله من بعيد ، بل إن الرجل ليحفل بالذباب وهو لم يحفلهم ولم يبال بهم . وتعب الشّاغبون وملّ الساخرون ، وكان في القوم من يعرف الشيخ ، فصاحوا بهم أن اسكتوا ويلكم نسمع ما يقول ، وكانت سكتة أخرى ، وهي كل ما كان يتمنى الشيخ فتمكن فيها من آذانهم ونفذ إلى قلوبهم ، فأصغوا ثم اطمأنوا ، ثم خشعوا ، ثم انقادوا إليه وتعلقوا به ، وحلّ من قلوبهم محل (تلك) ، ولكن حبّهم إياها كان حباً سفلياً ، وهذا حبّ طاهر مقدس ... فلما انتهى كلامه ، وقام ليخرج ، قاموا معه وخرجوا وراءه ، وتركوا المرقص لصاحبه وللشيطان ... ولازمته أنا من ذلك اليوم كما لازمه كثير ممن كان هناك ...

قلت : ألم تحفظ شيئاً من كلامه ؟

(١) القصير ظاهر بليدة دوما على بعد ١٤ كيلو من دمشق وفيه مستشفى الأمراض العقلية .

(٢) الرسن : الزمام من خام القنب الفصيح .